الفصل السادس

كنْ هناك

«لا يلزمنا أن نجد علاجاً لمرض السرطان لكي نُحْدِث تغييراً في العالَم... كلُّ ما علينا فعله هو أن نشاطر الآخرين حياتَنا».

هارولد كوشنر[1]

لطالما كنتُ من أنصار تجاوُز الخطوط التي تحول دون مدِّ الناس يدَ العون أحدهم إلى الآخر ـ تلك الخطوط التي قد تتمثل في صورة عوائقَ معنوية غير ملموسة كالمكانة الاجتماعية، أو مادية محسوسة كالبحار والمحيطات. ولديَّ قناعة بأن من أسباب وجود شرائح من الناس مهمَلة لا تلقى الرعاية هو أنها ليست محلاً لتفكيرنا على الإطلاق. ولعل هذا ما يجعلنا نتوخّى ـ عندما نقيم جسوراً جويّة للإمدادات ـ اختيارَ مجموعاتٍ من المتطوِّعين ليس لديها فكرةٌ واضحة عن الوجهة المقصودة بالزيارة، بحيث يكون هؤلاء المتطوِّعون عند عودتهم إلى بلادهم أكثر إدراكاً لأحوال مَنْ هم خارج نطاق اهتمامنا، وأعمق إحساساً بهم. وحالما يدرك الناسُ سهولةَ تخطّي الحدود الثقافية والاقتصادية بهذه الجسور الجويّة، يتعوَّد الكثيرون تخطّي تلك الحدود وهم مقيمون في أوطانهم، ويصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من أسلوب حياتهم.

obeikandl.com

لقد كانت خطوطُ العبور واضحةً في المؤسسات التي أدارتها الأم تريزا في كلكتا؛ فالناس هناك كانوا يتألمون وقد وُضِعوا في مؤسساتٍ معروفةٍ لكلِّ مَنْ يريد الوصولَ إليها.

على أن ثمة قريةً في ظاهر كلكتا كان يقطنها مرضى مصابون بالجذام ـ ذلك المرض الفظيع الذي يتلف الجسد. وعندما علمنا بمستعمرة المجذومين تلك، وبأن سكانها قد نُبذوا وانفضَّ عنهم الناس، بادرْنا إلى نقل متطوِّعينا إلى القرية، واستأجرنا مجموعةً من الموسيقيين والمغنّين وأقمنا لهم حفلاً لتسليتهم.

وفعلنا الشيء نفسه في فيتنام، حيث ما زال مرضُ الجُذام من المسائل الصحية الملحَّة، فجلبنا إلى القرية الفيتنامية أفضلَ أنواع الحبوب، ووفَّرنا اللوازمَ المدرسية لكل تلميذٍ هناك، ولجَّ بعضُ أعضاء مجموعتنا بالدعاء للمرضى الذين طلبوا ذلك.

حَضَرَتْني هذه الفكرةُ بعد أن سمعتُ الواعظ الكبير وعالِمَ الاجتماع توني كامبولو يتحدث عما حصل له مرةً عندما أَمَّ مطعماً رخيصاً في هونولولو الساعةَ الثالثة صباحاً. لم يستطع النومَ تلك الليلة بسبب اختلاف التوقيت بعد سفره من الساحل الشرقي. كان جالساً في ذلك المطعم يتناول قطعةً من الكعك المحلّى عندما دخلت المكانَ ثلاثُ نسوةٍ من بائعات الهوى يصطخبن.

أعلنت إحداهن: «غداً عيد ميلادي الحادي والثلاثون».

سخرت منها الأخرى وسألتها متهكّمة: «لعلَّك ترغبين في أن تقام لكِ حفلةٌ بهذه المناسبة!»

أجابتها: «وماذا عليكِ أنت؟ إنني أقول ذلك على سبيل الإعلام لا أكثر ولا أقل، ولا أريد منكم شيئاً. ولماذا تقام لي حفلةُ عيد ميلادٍ اليوم إذا كنتُ لم أحتفلْ بعيد ميلادي مرةً واحدةً في حياتي كلِّها؟»

أوحى هذا الحديثُ لكامبولو فكرةً، فسألَ الموظَّفَ خلف النُّضد بعد أن غادرَ النسوةُ المكان: «هل يحضر هؤلاء هنا كلَّ ليلة؟»

قال الرجل: «نعم»

«تلك التي جلست إلى جانبي، هل تحضر كلَّ ليلة؟»

«نعم، آغنيس تداوم بانتظام. ولماذا تسأل؟»

قلتُ: «لأنني سمعتُها تقول إن غداً عيد ميلادها. ما رأيك أن نقيم لها حفلةَ عيد ميلادٍ هنا ليلة الغد؟»

استحسن الموظفُ الفكرة واستدعى زوجته من المطبخ.

«تعالي؛ هذا الرجل لديه فكرةٌ رائعة. غداً عيد ميلاد آغنيس، ويطلب منّا مشاركته في إقامة حفلٍ لها هنا، ليلة الغد!»

استحسنت الزوجةُ الفكرةَ هي الأخرى وقالت: «هذا رائع؛ آغنيس فتاةٌ طيِّبة ولطيفة، ولم يسبق أن أحسنَ إليها أحدٌ قطُّ».

قال كامبولو: «سأعود غداً الساعة الثانية والنصف صباحاً لأزيِّن المكان، وسأحضر كعكة عيد الميلاد».

قال الموظف: «كعكة عيد الميلاد من اختصاصنا؛ أنا سأصنع الكعكة».

وعند الساعة الثانية والنصف من صباح اليوم التالي حضر كامبولو المطعم، ومعه زينةٌ ورقيةٌ وزخارف، وصَنَعَ لافتةً كبيرةً كتبَ عليها: «آغنيس، عيد ميلاد مبارك!» وقام بتزيين المطعم من أوله إلى آخره.

لا بدَّ أن أصحاب المطعم قد أعلنوا نبأ الحفل في شوارع هونولولو، فما كادت الساعة أن تقارب الثالثة والربع حتى اجتمعت فتيات هونولولو من مثيلات آغنيس في المطعم ومعهم كامبولو!

وعند الساعة الثالثة والنصف فُتِح الباب ودخلت آغنيس وصديقتها، فصاح الحضور جميعاً: «عيد ميلاد سعيد!»

قال كامبولو إن المفاجأة أذهلت آغنيس إلى حدٍّ فتحت معه فاها ولم تكد ساقاها تحملانها، فاعتمدت على صديقتها للوصول إلى مقعدٍ على المائدة وسط غناء الجميع لها: «عيد ميلاد سعيد عزيزتي آغنيس». ثم قدّموا لها كعكة العيد وعليها الشموع. عندئذ لم تتمالك نفسها، وانفجرت باكية.

ألحَّ الجميعُ عليها بإطفاء الشموع ففعلت، إلا أنها ظلَّت تحدِّق بنظرها إلى الكعكة. ولمّا أُعطيت سكيناً لقطعها، استأذنت الحاضرين في تأجيل أكلها ساعةً من الزمن وقالت:

«بيتي قريبٌ جداً من هنا؛ وكلُّ ما أريده هو أن آخذ الكعكة لأريها لأمي، وأعدكم أن أعود دون تأخير».

obeikandl.com

قال كامبولو إنها نهضت عن مقعدها وحملت الكعكة كما لو كانت تحمل الكأسَ المقدسة، وتوجَّهت بِها نحو الباب. وعندما أُغلق البابُ خلفها سادَ صمتٌ مطبقٌ في المكان(2).

عندما سمعتُ كامبولو يروي هذه القصة، آليتُ على نفسي أن أبحث عن مثل تلك الأماكن، فأوفِّر كعكَ الأفراح لمن لا يستطيع أن يحتفي بعيد ميلاده.

ذلك هو ما يحدونا على الذهاب إلى مستشفيات الجذام؛ فليس ثمة غيرنا يُقْدِم على لمس أولئك الناس الذين يموتون لعدم قدرتهم على الشعور باللمس! حريٌّ بكلٍّ منّا أن يقابل كلَّ يومٍ شخصاً ربما ينتفع من إيماءةٍ تقول: «إنني معك أسمعك وأراك، وأنت محلُّ اهتمامي».

وليس من الممكن دوماً، ولا حتى من الضروري، عبور حواجز ثقافية أو مادية سعياً إلى خدمة الآخرين؛ فكثيراً ما يكون أصحابُ الحاجات على مقربةٍ دانيةٍ منّا وتكون حاجاتهم جدّ بسيطة، بل قد تكون غاية ما يرومونه أن نكون معهم أو قريبين منهم يستأنسون بنا ؟فما عليك إلا أن تكون هناك.

تقول آن لاموت في كتابها Traveling Mercies: «إن كل ما تستطيع فعله عندما تأخذ بالأسباب هو أن تبرز لتقف إلى جانب شخصٍ في محنة. قد يبدو ذلك غير كافٍ، إلا أنك ما إن تبدأ العمل حتى يتغيَّر كلُّ شيء. إن مجرَّد وجودك في موقع الحدث ودخولك ضمن دائرة الرؤية الصحيحة قد يكون له وقع إعادة الحياة، في وقتٍ يكون فيه

الآخرون في الغالب متوارين. وكان وجودك هناك يعرب بلسان حاله عن أن بقعةً صغيرةً من هذا العالم هي الآن بخير، أو أن حالها على الأقل أفضل من ذي قبل»[3].

هكذا بدا الأمر عندما زرنا مشافي الجذام؛ يتوارى فيها الناس، أو يوارَوْن عن العالم. لكن رؤيتهم ليست بالأمر العسير لمن أراد أن ينظر فعلاً. صحيحٌ أننا لسنا مكلَّفين بعلاج جذامهم، إلا أن وجودنا معهم في حدٍّ ذاته يخفِّف من وطأة بلوى أخرى يعانونها. فإننا ـ بحسن صحبتنا لهم لبعض الوقت ـ نشعرهم أنهم ليسوا نكراتٍ نتجاهلها ونتغافل عنها، فمثل ذلك الشعور بالتجاهل مرضٌ، كما أن الشعور بعدم القيمة مرضٌ آخر.

ويروي توني هيندرا في كتابه Father Joe قصَّته عندما كان فتىً يعاني صراعاً مع أرواحٍ شرِّيرةٍ في داخله، فكان يختلف بين حينٍ وآخر إلى راهبٍ في دير، كعقابٍ أولَ الأمر، ثم بمحض اختياره. وفي ليلة قنوط فكَّرَ هيندرا بالانتحار لاعتقاده بأنه ارتكب خطيئةً لا تُغتَفَر، فتوجَّه في منتصف الليل إلى الدَّير بحثاً عن الأب جو الراهب. انطلق حارس بوابة الدير على مضض ليبلِّغ الأب جو، الذي كان نائماً.

يكتب هيندرا: «لم يفعل الراهبُ شيئاً سوى أنه أصغى إليَّ. لم يحاول أن يهدِّئ من روعي، ولم يحاول أن يعطيني سبباً لما أشعر به، أو أن يطمئنني أن ما يبدو لي صعباً هو في الواقع أمرٌ اعتياديٌّ وطبيعيٌّ لشخصٍ في عمري... ولم يحاول أن يخرجني من حالة الذعر بصدمة عنيفةٍ يمارسها عليَّ. كذلك لم يستحضر القوى العليا للتوسُّط شفاعةً لي، كما لم يدعُني إلى صلاةٍ معه أو دعاء».

نعم، لم يحاول الأب جو أن يعطي هيندرا أية إجابات، أو أن يطمئنه بأن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام. يقول هيندرا: «لقد تعامَلَ مع حالتي بجدِّيَّة، وبطريق المواجهة المباشرة، وكأنه كان يَصِفُني هكذا: هذا فتىً يائسٌ على جذوةٍ باردةٍ متوحِّدةٍ تدور عبر كونٍ لا معنى له، في كابوس يقظة».

وَجَدَ الأب جو مكاناً في الدير لهيندرا يأوي إليه، وجلسَ إلى جانب سريره لم يبرحه حتى غلبه النوم.

يقول هيندرا: «لا أدري كم مكثَ الأب جو إلى جانبي: دقيقتين؟ ساعتين؟ الله أعلم. كلُّ ما أعرفه هو أن شعوراً غامراً بالأمن والطمأنينة هبط عليَّ ككسف الثلج برداً وسلاماً، فانحسَرَ خوفي وانزاحت جحافلُ الظُّلمة عن نفسي، ليحلَّ محلَّها شعورٌ بالسلوان، فَنِمْتُ»[4].

إذن لم يعطِ الأب جو أجوبةً، فليس هذا هو ما يحتاجه هيندرا، إلا أنه منحَ حضوره؛ فقد أدرك أن خير استجابةٍ في وضعٍ كهذا تتمثَّل في أن يكون حاضراً في موقع الحدث.

بعد وفاة الأب جو قرأ هيندرا نعيه، وأدهشه ما فيه من أن الأب «كان ذا أثرٍ عميقٍ في حياة كثيرٍ من الناس في إنكلترا وخارجها، في كنيسته وفي غيرها... وأن من الصعب تقدير مدى عمق ذلك الأثر».

كان هيندرا يعتقد أنه هو الشخص الوحيد الذي أثَّر فيه الأب جو ذلك التأثير العميق دون غيره، فكتب يقول: «لقد تمكَّن الأب جو أن يُحدِث تحوُّلاً في مسار حياة كثيرٍ من الناس. وإن من دواعي الإعجاب بهذه الشخصية أنك تُعامَل وكأنك أنت الوحيد في حياته، محاطاً بمحبةٍ لا تعرف التمييز وعطفٍ روحيٍّ بالغ».

وبعد أن أعربَ هيندرا عن دهشته من قدرة الأب جو على إقامة علاقات «إصغاء» مع كثيرين غيره، قال له أحدُ نسّاك الدير موضِّحاً: «نعم، هذا ديدنه، فكلٌّ واحدٍ يعتقد أنه هو صديقه الأثير».

ويعقِّب هيندرا قائلاً: «وكلٌّ من اعتقدَ هذا فقد أصاب، فكلُّنا لديه أثير»[5].

ظلَّ نموذجُ الأب جو مثالاً لتجربتي الشخصية عندما عدتُ إلى كوسوفو بصفتي المدنيّة، بعد نحو سنةٍ من خدمتي هناك طبيباً احتياطياً في الجيش. فقد حدثَ أن كنتُ في جولةٍ بالسيارة مع نفرٍ من الأصدقاء ليلاً عندما طلب مني أحدهم أن أعرِّج على بيت سيدةٍ مريضةٍ جداً كان أصدقائي يقدِّمون لها ولأسرتها يد المعونة بين حينٍ وآخر، فرغبوا إليَّ أن أقوم بفحصها بحكم وجودي هناك.

كان علينا أن نقطع مسالك وعرةً قبل أن نصل إلى منزل تلك العائلة ذي الغرف الثلاث، الواقع في طرف البلدة، والمصنوع من اللِّبْن وقطع الفحم. لفتَ نظري وجود أطفالٍ في كلِّ أرجاء المكان، بعضهم يرتدي ملابس رثَّة وقذرة. خرج ربُّ الدار للقائنا، وما إن صافَحَنا حتى أدركتُ أن ثمة خللاً في شخصيَّته، وعلمتُ من أصدقائي فيما بعد أن الجيش الصربيَّ كان قد أطلق غازاً ساماً باتجاه الغرفة التي يقيم فيها فأصيب من جرّاء ذلك بتلفٍ في دماغه. كان الرجل مرحاً، إلا أنه بدا ذا مسلكٍ طفوليّ.

obeikandi.com

سمعتُ من داخل الدار أنيناً وصراخاً. تتبَّعتُ مصدرَ الصوت وهالني ما رأيتُ: وجدتُ شابَّيْن متمدِّدَيْن على الأرض متدثِّرين، أحدهما مشوَّه بدا غير قادرٍ على الجلوس، يتفرَّس في زوّاره جامداً في مكانه، وكان دثاره متَّسخاً. أما الآخر فكان يتأوّه ويصيح مهتاجاً، ولا يكفُّ عن رضخ جسده بالجدار.

ولم تكن المريضةُ المقصودةُ بزيارتنا إلا والدة ذَيْنك الشابَّيْن العاجزَيْن، وزوجة الرجل المؤُوف الدماغ، ووالدة عددٍ من الأطفال الذين يعجُّ بهم المكان في الخارج.

كانت تجلس في كرسيٍّ فَضْفَضَ كثيراً على جسدها المهزول المنكمش. وحكمتُ من نظري إليها أنها تُحتَضَر. سألتُها ـ بوساطة ترجمانٍ ألباني ـ هل تشعر بالألم، فردَّت بالإيجاب. وأخبرتني أختُها القائمة على خدمتها أنها تعاني سرطاناً في الثدي. تتبَّعتُ أمارات المرض وأصغيتُ إلى وجيب قلبها ورئتيها، فوجدتُ رئتيها ممتلئتَيْن سائلاً يحول دون أخذها ما يكفي من الهواء. كان نبضُها وضغطُ دمها ضعيفَيْن جداً، فهي إذن مصابةٌ بآفاتٍ أخرى إضافةً إلى سرطان الثدي.

تحدَّثتُ معها عن أولادها، فعرفتُ أن الشابَّيْن المُقعدَيْن في الغرفة المجاورة قد وُلدا مشوَّهَيْن جسدياً وعقلياً. أما الأطفال الذين يلهون في الخارج فهم أسوياء الخَلْق، إلا أن لديهم من الطاقة والنشاط ما يوشك أن يدفعها إلى الجنون.

obeikandi.com

أعطيتُها بعضَ الدواء المسكِّن للآلام، وسألتُها هل هي مدركةٌ تماماً لخطورة حالتها. ردَّت بالإيجاب وقالت إنها خائفةٌ جداً.

سألتُها: «ممَّ أنتِ خائفة؟»

فأجابت: «خائفةٌ من المستقبل الذي ينتظر أولادي بعد رحيلي عن هذه الدنيا». وبادرت أختُها إلى طمأنتها بأنهم سيكونون في رعايتها.

وعندما سكنت آلامها قليلاً سألتُها ماذا عساي أن أفعل لها. ولعلِّي لم أدرك مرادها تماماً لأني أتواصل معها عن طريق ترجمان. لكنها أشارت إلى الباب المفتوح وكأنها تقول: «أريد أن أخرج إلى هناك». أو ربما كانت تشير إلى السماء معبِّرةً عن واقع حالها: «أريد أن أغادر بعيداً».

وبمساعدة صديقي حملتُ السيدة وهي في كرسيّها إلى الهواء الطلق. راحت تنظر في سماء الليل المرصَّعة بالنجوم. وكنتُ على يقينٍ من أنني ـ كطبيب ـ لا أستطيع فعل شيءٍ لها أكثر مما فعلتُ، إلا أنني أستطيع ـ بصفتي إنساناً عادياً أسكن الطرفَ الآخر من الأرض ـ أن أبقى إلى جانبها لإيناسها مدةً أطول. تحدَّثنا أكثر فأكثر عن رحلتها إلى الآخرة.

قالت: «أريد أن أنتقل إلى الجنة».

قلتُ: «إذن ألقاكِ هناك».

هدأت جلبة الأولاد قليلاً، وتوقفت الكلابُ عن النباح، ولم يبقَ إلا أنين الابن الذي يرضخ نفسه بالجدار في الداخل، وخوار بقرة الأسرة المربوطة في الجوار ينطلق من وقت إلى آخر. جلستُ مع هذه السيدة جنباً إلى جنب نرعى النجوم، ثم ودَّعتُها وغادرتُ، وعلمتُ أنها توفيت بعد ساعات.

إن من أهم ما نستطيع مشاركةَ إنسانٍ آخر فيه أحياناً هو «المكان». يكتب هنري ناوين أن مظاهر القِرى الحقيقي لا تقتصر على حُسن وفادتنا لضيفٍ حلَّ منازلنا، بل "إن في وسع الناس، رجالاً ونساءً، أن يقدِّموا فسحةً محبَّبةً مفتوحةً يستطيع فيها الغرباء أن يطرحوا جانباً صفةَ «الغربة»، وأن يصبحوا إخواناً لنا في الإنسانية»[6].

ثم إن حُسنَ الوفادة لا ينطوي على إفساح حيِّزٍ مادّي فقط، وإنما توفير حيِّزٍ شخصيٍّ كذلك. فإضافة إلى توفير المكان وتهيئته إكراماً لشخصٍ ما، فإن الإكرام الحقيقي يقتضي أيضاً فسحَ مجالٍ في حياتنا للآخرين.

تتحدث لورين وينر في كتابها Mudhouse Sabbath عن اعتراضها على استقبال ضيوفٍ في شقّتها ما لم تكن الشقة غايةً في النظافة والترتيب. وهذا يعني أن أحداً لم يُدعَ إلى زيارتها، لاسيما بالنظر إلى ضيق المكان. ثم إنها أدركت أنها لا تنظر إلى إكرام الضيف على أنه «اقتسام المكان»، بل على أنه ضربٌ من «التباهي». لقد كان كلُّ حرصها منصبّاً على أن يرى الجميعُ كم هو مرتَّبٌ ومثاليٌّ بيتها.

كتبتْ وينر: «عندما أدعو شخصاً إلى تناول الشاي في بيتي، أجد من المناسب إفراغ سلة مهملات المطبخ وإزالة الملابس المتَّسخة من على أرض الحمّام. وفوق ذلك، يترتب عليَّ ـ لكي أكون مضيفةً ناجحة ـ أن أتخلَّى عن مفاهيمي المتَّصلة بالمثالية في حسن تدبير المنْزل، وعن غروري واعتدادي بنفسي، فأكون مستعدّةً لدعوة الناس إلى زيارتي، وإن لم أُنجز عمليات التنظيف اللازمة. إنه أمر عسيرٌ حقاً».

ثم إنها توسِّع ذلك المفهوم حتى يشمل حياتَها كلَّها، لا بيتها فقط؛ إذ إنها تريد، قبل أن "تدعو أحداً" ليشاركها حياتها، أن تستيقن من أن حياتها منتظمةٌ ومثالية، وهي بالطبع أبعد ما تكون عن ذلك.

وتقول: «إن استقبالنا ضيوفاً وزوّاراً في بيوتنا، أو شركاء لحياتنا ـ إذا نحن أحسنّا ذلك ـ ينبغي ألا يكون فرضاً أو عبئاً؛ فلا يلزمنا إعادة تنظيم حياتنا لمصلحة ضيوفنا، بل إن عليهم دخول حياتنا كما هي دون إجراء أي تعديلٍ عليها».

إن حياتنا الداخلية، شأن معظم بيوتاتنا، لن تكون يوماً «جاهزةً» أو مثاليةً لدخول أيِّ شخصٍ آخر عليها لمشاركتنا فيها. وتضيف: «عليَّ أن أكون قادرةً على المجازفة في إطلاق الدعوة بين حينٍ وآخر»(7).

إنني لا أتحدث هنا بالضرورة عن إقامة حفلات، بل أتعرَّض فقط لقيمة وجودك مع شخصٍ قد سئمَ الوحدة، وهذا جزءٌ مهمٌّ من خدمة الآخرين. وكما قالت لورين وينر، فإن الأمر يحتاج إلى سلوك منحىً آخر من التفكير، على أنه يغدو أبسط مما نظن حالما يتحقَّق

ذلك التبدُّل الداخلي. إن توفير فسحة للآخرين لا يعني أبداً أن علينا أولاً أن نجعل كلَّ شيءٍ مثالياً؛ كلُّ ما علينا فعله هو أن نكون منفتحين على رؤية الآخر والاحتكاك به وإدراك ما يجب علينا تقديمه له، بمنظورٍ مختلف.

ولا شك أن القِرى أسلوبٌ من أساليب النظر إلى إخواننا في الإنسانية، ويمكن الإفصاح عنه بطرائق لا حصر لها. وخير تلك الطرائق، فيما أرى، لا يعدو أن تكون مع أولئك الذين هم في حاجةٍ إليك، فقد تكون حاجتهم مقتصرةً على الفسحة التي تستطيع أن تقفها من حياتك لهم.

فمرضى الجذام في القرية الواقعة في ظاهر كلكتا لم يكونوا في الواقع بـ«حاجة» إلى حفلةٍ موسيقية، بل إلى شخصٍ يقول لهم «هاأنذا أراكم وأرعاكم»؛ كما أن أطفال قرية الجذام في فيتنام ربما لم يكونوا في «حاجة» إلى المعونات المدرسية التي قدَّمناها لهم، على أهميتها، بل كانوا أكثر حاجةً إلى الاعتراف بوجودهم وأنهم محلُّ عناية. وقد رأينا كذلك كيف أن السيدة المحتضَرة في كوسوفو قد شعرت بالراحة بعد أن تناولت ما أعطيتُها من الدواء، إلا أن حاجتها كانت أكبر إلى شيءٍ من الطمأنينة على أولادها من بعدها، إضافةً إلى مَنْ يجالسها في آخر ليلةٍ لها على الأرض. وهذا بالضبط هو معنى إيجاد الفسحة للآخرين.

وهكذا فإن القِرى، كما وصفه ناوين «يعني في المقام الأول إحداث فسحةٍ حرَّةٍ يستطيع الغريبُ دخولها ليصبح صديقاً بدلاً من أن يكون عدّواً».(8)

في الفيلم Hotel Rwanda يكون بول روسيساباجينا ـ الشخصية الرئيسية في الفيلم ـ مديراً لفندق في وقتٍ عصيبٍ استَعَرَتْ فيه ثورة، وبدأ أفراد قبيلة الهوتو المتمرِّدة بذبح أفراد قبيلة التوتسي. ويالها من مشاهد فظيعةٍ ورهيبة ومثيرةٍ للغضب والنقمة أن ترى أرواحاً تُزهق نتيجةً للفساد السياسي والحماقات الجبانة. إلا أن لحظات الفرج والراحة في الفيلم تأتي عندما تجد المديرَ، الذي امتلأ فندقُه عن آخره باللاجئين طلباً للسلامة، لا يفتر في السعي إلى تدبير مزيدٍ من الأمكنة لإيواء أولئك الذين لا يجدون مكاناً آخر يلوذون به.

وقد ذُبح في تلك المجازر أكثر من مليون من الروانديين في غضون ثلاثة أشهر فقط. وتمكَّن روسيساباجينا من إنقاذ أفراد عائلته إضافةً إلى نحو ألفٍ آخرين. لم يكن رجل سياسةٍ محنَّكاً، ولا جندياً محارباً، ولا فرداً من قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، بل كان فرداً من قبيلة الهوتو، وكان الناسُ الذين ينشدون عنده الملاذ هم من التوتسي أو «الصراصير» كما كان يدعوهم أعداؤهم من الميليشيات. هذا رجلٌ عرفَ كيف يوفِّر المكان لا أكثر ولا أقل ـ إنه تجسيدٌ حيٌّ لحسن الوفادة، وما فعله هو أنه «كان هناك» في خدمة أناسٍ خائفين.

وينتهي الفيلم بطريقةٍ تصوِّر فلسفته؛ فيعثر هو وزوجتُه على قريباتهما في مخيَّمٍ للاّجئين، ويتوجَّهون جميعاً إلى حافلةٍ تنقلهم إلى مكانٍ آمن. ويُعلِّمون أن ليس ثمة متَّسَعٌ سوى لأقاربه الأدنين.

يسأل أحدُ عمال الغوث: «هل سيتَّسع المكان لنا جميعاً يا تُرى؟" فيجيبه: «ثمة متَّسَعٌ دوماً لكلِّ محتاج»[9].

obeikandl.com

وهو مدركٌ لما يقول، فلا ينفكّ يسعى في إيجاد أمكنة للناس. ويلفت نظرك فعلاً العنوانُ الفرعيُّ للفيلم: «عندما يغمض العالَمُ عينيه يبادر هو إلى بسط ذراعيه». أليس هذا ما ينبغي أن يتحلّى به كلٌّ منّا؟

والأم تريزا مثالٌ آخر، فهي راهبةٌ أجنبية المولد كانت في أواخر الثلاثينيات من عمرها عندما كانت تدير مدرسةً داخليةً للإناث في كلكتا. ولم تتمالك في أثناء تجوالها في المدينة يوماً أن انسحق قلبُها من مشهد أشخاصٍ مهمَلين في الطرقات ينتظرون الموت. «وتحت وطأة هذه المشاهد المقيتة أحسَّت بهاتفٍ يدعوها إلى امتهان عملٍ جديدٍ يقوم على خدمة مثل هؤلاء المتروكين والمنسيِّين واليائسين، ورعايتهم والبقاء معهم»، كما يقول العالِمُ النفسي جيمز فاولر[10].

لم تؤسِّس الأم تريزا حركةً أو تنشئ شركةً أو مجموعةَ عملٍ سياسي؛ كلُّ ما في الأمر أنها رأت إنساناً مكروباً فوفَّرت له متَّسعاً.

على أن من أكثر الأمثلة إثارةً في هذا السياق ما وقع في عطلة أعياد الميلاد سنة 1995 في مدينة لورانس (ماساتشوستس)، حيث تعرَّض معملُ النسيج المحلّيُّ مولدن ميلز لحريقٍ كبيرٍ أتى عليه بكامله، فواجه العاملون فيه، وعددهم ثلاثة آلاف، احتمال فقدهم لأعمالهم في أثناء العطلة، بل خامرهم اعتقادٌ بأن صاحب المصنع قد يستغلُّ هذه الفرصة لنقل العمل برمَّته إلى إحدى الدول النامية طلباً لليد العاملة الرخيصة. وخشيت المدينةُ أن تخسر هذا المورد الاقتصادي الهام.

إلا أن صاحب المصنع خرج بعد يومٍ واحد ليعلن أن جميع العاملين سيستمرُّون في تقاضي مرتَّباتهم كالمعتاد على الرغم من عدم وجود مكانٍ للعمل، وأنه سيعيد بناء المصنع في ذلك الموقع نفسه.

ونُقِل عنه قوله: «إن من غير المعقول، ومما لا يرضاه كلُّ ضميرٍ حيّ أن يُترك ثلاثةُ آلاف شخصٍ في الطريق بلا عمل، وأن تصاب مدينة لورانس بضررٍ فادح. ربما أصبحت مؤسَّستي ـ نظرياً ـ أقلَّ قيمةً في سوق المال (وول ستريت)، لكنني أؤكد لكم أنها الآن أكبر قيمة».

ويقول هارولد كوشنر في كتابه Living a Life that Matters إن أموراً كهذه تحدث عندما ننظر إلى الأشياء والأشخاص بمنظارٍ غير منظارنا. ويتابع: «إن صوت الضمير الذي حدا صاحبَ مصنع النسيج على إعادة بناء مولدن ميلز، والذي يحملنا على التطوُّع بجزءٍ من وقتنا لملجأٍ للمشرَّدين من بني الغبراء، والذي يبعثنا على تقديم حاجات عوائلنا على حاجاتنا الشخصية، هو في الحقيقة صوت الله. فنحن عندما نسدي خدمةً للآخرين إنما نتعلَّم أن نرى العالَم من منظورٍ إلهي».[11]

ذلك هو ما حمل صاحبَ المصنع على «أن يكون هناك» لمصلحة موظَّفيه وعمّاله ومجتمعه، وربما كان من مصلحته نقل العمل إلى مكانٍ آخر أجزل نفعاً، إلا أنه آثر أن يبقى في موقعه خدمةً للآخرين.

ولعلنا نشعر أحياناً بالضعف عندما يصل الحال إلى خدمة الآخرين، لما قد ينتابنا من شعورٍ بالعجز عن فعل أي شيء. وإذا كنّا كثيراً ما نسمع الآخرين يقولون: «لا تقف هكذا. افعل شيئاً!» فإن ذلك ليس ما يحتاج إليه الناسُ دوماً؛ إنهم في الغالب بحاجةٍ إلى شخصٍ يمنحهم فسحة.

بعبارةٍ أخرى، «لا تكتفِ بالفعل فقط، بل قِفْ في موقع الحدث أيضاً».